

**قبائل الجزء الغربي للريف الشرقي:
التوزيع الجغرافي وأنماط استغلال المجال**

***Tribes of the Western Part of the Eastern Rif: Geographical
Distribution and Patterns of Land Use***

د. محمد القلوشي: دكتور في الجغرافيا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وجدة، المغرب

Dr. El Kallouchi Mohamed: Doctor in Geography, Faculty of Arts and Humanities, Oujda, Morocco.

Email: m.elkallouchi@ump.ac.ma

DOI: <https://doi.org/10.56989/benkj.v5i2.1353>

المخلص:

سعت الدراسة إلى تسليط الضوء على موضوع يكتسي أهمية خاصة في الدراسات السوسولوجية والتاريخية والأنثروبولوجية وحتى الجغرافية، باعتبار القبيلة شكلت أهم الهياكل الإدارية والسياسية التي نشأت بالمجتمعات القروية التقليدية، كما لعبت دورا محوريا في تنظيم مجموعة من العلاقات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وأثرت في تشكيل وإنتاج المجال. وعلى الرغم من التطور الذي شهده المجتمع في العصر الراهن وظهور هياكل جديدة لتسيير وتدبير التراب إلا أن القبيلة لا زالت تحتفظ بأهميتها ومكانتها في العديد من المناطق. لذلك نرى أنه من الفائدة أن نشير هذا الموضوع من خلال دراسة قبائل الجزء الغربي للريف الشرقي ورصد أنماط استغلالها للمجال.

الكلمات المفتاحية: القبيلة، المجال، الجزء الغربي للريف الشرقي، التوزيع الجغرافي، أنماط وأشكال الاستغلال.

Abstract:

The study aimed to shed light on a topic that holds particular significance in sociological, historical, anthropological, and even geographical studies, as the tribe formed one of the most important administrative and political structures that emerged in traditional rural societies. It played a central role in organizing a range of political, social, and economic relations and influenced the shaping and utilization of the land. Despite the developments in modern society and the emergence of new structures for managing and organizing space, the tribe still retains its importance and status in many regions. Therefore, we believe it is valuable to address this topic by studying the tribes of the western part of the eastern Rif and observing their patterns of land use.

Keywords: Tribe, Field, The western part of the eastern Rif, Geographical distribution, patterns and forms of exploitation.

المقدمة:

إن موضوع القبيلة وتحديد الأصول موضوع شائك ومعقد للغاية، تناولته أدبيات متعددة وتنازعته تخصصات كثيرة؛ كالتاريخ والأنثروبولوجيا والجغرافيا والسوسيولوجيا وغيرها. لذلك لا غرابة في أن نجد تعريفات متعددة لهذا المفهوم، وكل باحث يُعرفه من زاوية منهجه ومبادئ بحثه. فنجد الباحث السوسيولوجي بول باسكون يعرفها على أنها "مجموعة بشرية تربط فيما بينها عوامل اقتصادية جغرافية وتبرز علاقة الإنسان بالأرض". كما يعرفها الأنثروبولوجي لويس هنري مورغان على أنها "مجموعة أكثر اتساعا من البطن، تتسم بملامح تجعلها أقرب من كيان أكثر اتساعا وأشد غموضا هو العرق، ويضيف أن كل قبيلة تتميز باسم خاص ولهجة منفصلة وحكومة عليا وحياسة مجال جغرافي تحتله وتدافع عنه كملكية خاصة"¹. كما تعبر أيضا على أنها وجود سياسي له استقلاليته الذاتية بحيث تصبح كل قبيلة بمثابة الوسط السياسي الطبيعي لمجموع الفرق أو الأفخاذ التي تشتمل عليها². أما ابن خلدون فيعتبر القبيلة "لا تتحدد انطلاقا من جماعة متفرعة عن جد واحد أول، كما لا تتحدد فقط بما يجمع بين أعضائها من روابط الدم، وإنما الإطار الحقيقي للقبيلة يتحدد بناء على النسب الواسع والرمزي". ولا زالت المجتمعات العربية تصر على أهمية القبيلة في حياة الأفراد³. فضلا عن أنها تتصف بالتضامن والشعور بروح الجماعة ولكل فرد أو مجموعة من الأفراد فيها له دور معين أو مجموعة من الأدوار المتكاملة⁴. في هذا الصدد نجد المغرب قد تتبنى لفترات زمنية طويلة هذا النظام باعتباره شكلا من أشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي⁵ لحياة وشؤون الأفراد.

نستشف إذن من هذه التعاريف أن القبيلة شكلت النواة الأولى للتجمعات البشرية واتحادا لمجموعة من الأفخاذ والأرباع والدواوير لتحقيق أهداف معينة اقتصادية ودفاعية وأمنية، كما تعتبر كيانا تتفاعل داخله مجموعة من العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والجغرافية يكون أساسها التعاضد والتعاون؛ لذلك نجد مجال الدراسة استوطنته قبائل متعددة مارست أنشطة اقتصادية مختلفة.

¹ - لويس هنري مورغان (1818-1881): أنثروبولوجي أمريكي اهتم في بداية حياته بدراسة هنود الايروكيز وغيرهم من سكان الشمال الشرقي الأمريكي الأصليين.

² - المبارك، محمد (1992): بعض المعطيات حول الدولة والمجتمع خلال المغرب القديم، ط1، دار إفريقيا للشرق، ص120.

³ - Gao, Eleanor (2024): Bringing back the tribe: Why we should not abandon the study of tribes in the Arab world. *Frontiers in Political Science*, p6.

⁴ - حالي، محمد (2013): الديمغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط من خلال تاريخ ابن خلدون، مجلة المستقبل العربي، ص60.

⁵ - Aderghal, M. & Simenel, R. (2012): La construction de l'autochtonie au Maroc, Des tribus indigènes aux paysans amazighs. *Espace, Populations, Sociétés*, p70.

تتجلى الدوافع الرئيسية التي دفعتنا للنش في هذا الموضوع في أهمية القبيلة على اعتبار أنها تلعب دورا رئيسيا في تشكيل الهوية الثقافية والمجالية للمجموعات البشرية، وشكلت عنصرا أساسيا في الهياكل السياسية والبنية الاجتماعية والاقتصادية بالمجتمع القروي المغربي، كما تساعدنا دراسة القبيلة على فهم التنوع الثقافي للمجتمع والتحول السوسيو مجالية التي عرفها المجال ودور القبيلة في ذلك.

سعى هذا البحث إلى تقديم دراسة أصيلة عن موضوع القبيلة بالجزء الغربي للريف من خلال تحديد التشكيلة القبلية بهذا المجال ومكوناتها مع رصد أصولها وتوزيعها المجالي، إلى جانب ذلك البحث في أشكال وأنماط استغلال المجال من قبل هذه المجموعات البشرية. وبناء على ذلك يمكن صياغة الإشكالية الرئيسة للبحث على النحو التالي: ما هي القبائل التي يتكون منها الجزء الغربي للريف الشرقي، وما أنماط وأشكال استغلالها للمجال؟

أما من جهة المنهج فقد توصلت هذه الدراسة التي اهتمت بموضوع القبيلة بمقتضيات منهجية ابستمولوجية قائمة على المنهج التاريخي والوصفي، تفاعلت فيهما جملة من الأدوات الإجرائية لهذين المنهجين في شكل التحليل والمقارنة وغيرها، والالتزام بقواعد البحث العلمي خاصة ما يرتبط بالتوثيق والإحالة. إلى جانب ذلك اعتمدنا على دراسة ميدانية للبحث في تفاصيل بعض القبائل بالمجال المدروس خاصة فيما يتعلق بأنماط استغلال المجال.

النتائج والمناقشة:

قبائل الجزء الغربي من الريف الشرقي: التوزيع الجغرافي وأنماط استغلال المجال

يتكون الجزء الغربي من الريف الشرقي من عدة تجمعات قبلية أمازيغية الأصل، كما يشير إلى ذلك الورياشي "إن هذه القبائل كانت تستعمل اللهجات الريفية كلغة تخاطب، لا لغة كتابة أو تعلم، التي هي اللغة العربية والتي بيرع فيها أبنائها براعة¹. وبحكم قدم الاستقرار فقد عمدت كل قبيلة على استغلال مجالها حسب الإمكانيات والقوة الإنتاجية المتاحة (الأرض والوسائل والطاقة البشرية)؛ لذلك تعاطوا السكان للزراعة والغراسة بالدرجة الأولى ثم تربية المواشي وباقي الأنشطة الأخرى التكميلية كالصيد البحري والتجارة². وعلى الرغم من التطورات والتغيرات التي حدثت على مستوى التقسيم الترابي (جهات، أقاليم، جماعات) إلا أن الانتماء للقبيلة كوحدة سوسيو- مجالية لا زال بارزا بالريف الشرقي وحاضرا بقوة على مستوى العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والممارسات السياسية

¹ - البوعياشي، أحمد عبد السلام (1974): حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، الجزء الأول، ص 107.

² - القلوشي، محمد (2024): الموارد الترابية ودورها في التنمية المحلية بالجزء الغربي للريف الشرقي: دراسة حالة إقليم الدريوش، المغرب، جامعة محمد الأول وجدة: أطروحة دكتوراه غير منشورة.

أيضا، حيث الفرد يشهر انتمائه للقبيلة قبل أي انتماء جغرافي أو إداري كان. ويمكن من خلال التقسيم الموالى إعطاء نظرة عامة عن القبائل المستوطنة للمجال وبعض ملامحها الاقتصادية:

- قبيلة امطالسة:

المطالسة أو البطالسة، قبيلة كبرى، تمتد أراضيها في الزاوية الجنوبية الغربية من مجال الريف الشرقي، محتلة الكتلة التلية الواقعة بين اكزناية غربا وبني بويحيى شرقا، كما تُحد شمالا بمجال قبيلتي آيت سعيد وايت وليشك، أما في أقصى الشمال الغربي تحدها قبيلة نفرسييت وقبيلة ايت توزين. وحسب الإحداثيات الجغرافية تقع القبيلة بين خطي طول $3^{\circ}10'$ و $3^{\circ}40'$ غرب خط غرينتش وبين خطي عرض 34° و $35^{\circ}35'$ شمال خط الاستواء¹. وهي قبيلة كبيرة سواء بمساحتها البالغة 1119.43 كلم²، أو بقوتها الحربية التي تجعلها مهابة من طرف جيرانها، إذ يمكن لها جمع 10.500 محارب، من بينهم 8.000 محارب مسلحين تسليحا جيدا ببنادق ريمنكتون والموسير². ويتوزع سكان القبيلة إلى مجموعة من الأرباع والفرق كفرقة أولاد إبراهيم بن علي، أولاد حمو، أولاد سالم وأولاد داود، كما تضم عدداً مهماً من الدواوير المتفرقة والمشتتة مجاليا؛ وهي بذلك تتكون من عناصر محلية وأخرى وافدة التحقت في فترة متأخرة واستقرت واندمجت مع السكان الأصليين؛ لذلك نجد اللهجة الأمازيغية عند المطالسيين تختلف بعض الشيء عن باقي القبائل كتمسمان وايت توزين. وتوجد القبيلة على موضع منخفض عكس بعض القبائل المذكورة. هذا ما أكده مولييراس بقوله "ها نحن لأول مرة، نحط الرحال عند أمازيغيين رحل وسنغادر الجبل إلى السهل، حيث توجد صحراء حقيقية وهي صحراء الغاريت. إن تبدل المناظر يحدث فجأة، بدون تمهيد؛ وهو تبدل جذري يقع أمام عينك، بفضل اليد اللامرئية للصانع القادر الذي يحرك العوالم. وما أن تطأ قدمك آخر تموجات الغرب، حتى يمتد السهل أمامك في شاعته وفي الانبساط اللامتناهي لمتناثله الممل"³. عموما يغلب على القبيلة طابع الانبساط، حيث تتكون من وحدتين تضاريسيتين؛ وحدة سهلية (سهل الكرت وكرواو) التي تغطي معظم أجزاء القبيلة ووحدة جبلية (جبال عين زورة) التي تعرف انتشارا محدودا في الشمال الشرقي والجنوب الغربي وتخترقها أودية مهمة ذات طابع موسمي⁴.

¹ - القلوشي، محمد؛ بلغيثري، الحسن (2022): التغيرات المناخية وانعكاساتها على الموارد المائية: دراسة حالة قبيلة امطالسة (الريف الشرقي)، مجلة الدراسات الإفريقية وحوض النيل، مجلد 5، عدد 17، ص 342.

² - الفكيكي، حسن (2008): الشريف محمد أمزيان شهيد الوعي الوطني (1908-1912)، ط1، المغرب، ص 265-266.

³ - أوجيست، مولييراس (1895): المغرب المجهول اكتشاف الريف، ترجمة الخطابي عز الدين، الجزء الأول، ط1: دار النجاح الجديدة، ص 128.

⁴ - القلوشي، محمد؛ بوڭلبة، إسماعيل (2024): التراث المادي واللامادي بقبيلة امطالسة (الريف الشرقي): التحديات وسبل التثمين، مجلة أطلننتس، عدد 31، ص 627.

تعرف القبيلة حياة الاستقرار ويتعاطى سكانها، رغم بعض أجزائها القاحلة والجافة، لزراعة القمح والشعير وغراسة أشجار الزيتون، كما يتوفرون على قطع مهم من المواشي، إلى جانب ممارستهم لبعض الحرف التقليدية خاصة تلك المرتبطة بمادة الحلفاء؛ لأن القبيلة تعرف انتشارا مهما لهذا النبات الذي كان يستخدم في صناعة النعال والحصائر والققف وبعض الأدوات المنزلية كالطبق مثلا، كما صرح بذلك أحد المسنين بالقبيلة "... كنا نذهب في الصباح الباكر ونصعد الجبال ونحن مجهزون بالمناجل والحبال من أجل حصد نبات الحلفاء، وبعد جمعها على شكل حزم مربوطة بعناية نحملها فوق ظهورنا متجهين نحو الخيمة حيث السكن، وبعد نصف يوم شاق ومتعب نشرع في المساء بتنظيم العمل وفرز الحزم فنخصص بعضها لصناعة النعال والققف وغيرها، بينما الباقي نبيعه في الأسواق الثلاث بالقبيلة للتجار والمتبضعين"¹. إلى جانب أن "هذه الأسواق كانت تتم فيها تجارة الأغنام والصوف والحلقة والخيام المصنوعة من شعر الماعز أو من الصوف الأسود والزرابي والشاي والسكر الإنجليزيين والبارود والرصاص والبنادق والحياد والزبدة والعسل"².

- قبيلة ايت توزين:

تحتل قبيلة ايت توزين الجزء الغربي من المجال المدروس، وتتموقع الجغرافيا بين وادي كرت شرقا، ووادي النكور غربا، وتحدها شمالا مرتفعات وحوض تمسمان، وجنوبا هضاب ومرتفعات كزناية (أكنول)، وهي بذلك تقع بين خطي طول 3 درجات و30 دقيقة، و3 درجات و50 دقيقة غربا، وبين خطي عرض 34 درجة و50 دقيقة، و35 درجة و8 دقائق شمالا. أما حدودها بالنسبة للقبايل المجاورة، فهي تُحد شمالا مع قبيلة تمسمان وتفرسيت، وشرقا قبيلة امطالسة وتفرسيت، أما من الناحية الغربية تتصل مباشرة بقبيلة ايت ورياغل، وجنوبا بقبيلة كزناية. ينتسب أهل ايت توزين، وهم في الأصل أمازيغ، إلى قبيلة زناتة وبالضبط لفرع بني توجين التي كانت تستقر بالمغرب الأوسط. كما بين ذلك ليون الإفريقي وابن خلدون في العديد من المناسبات، نفس الطرح ذهب فيه أنخيلو كيريلي، حيث أكد على أن "المستوطنين الأوائل لمجال بني توزين ينتمون لمختلف الأسر الزناتية، التي أقيمت بالمنطقة في ظل بني توجين بعد أن هيمنت هذه العائلة على باقي العائلات الأخرى بفعل الهجرات المتتالية للعناصر ذات الصلة بالمغرب الأوسط، ويضيف أن تاريخ بني توزين يعج بالأحداث البارزة خلال هذه المرحلة، فانضمام هذه المجموعة البشرية إلى الإمارة المرينية أكسبتهم امتيازات وقوة جعلت بني توزين يوسعون مجالهم إلى حوض تفرسيت وسهل امطالسة الممتد شرقا"³. والبوعياشي أشار للقبيلة بقوله: "لا زالت قبيلة بني توزين تحتفظ إلى الآن باسم أحد بطون زناتة مع تحريف في حرف

¹ - جلسة مع أحد المسنين بالمنطقة، الحاج رجال البالغ من العمر 98 سنة.

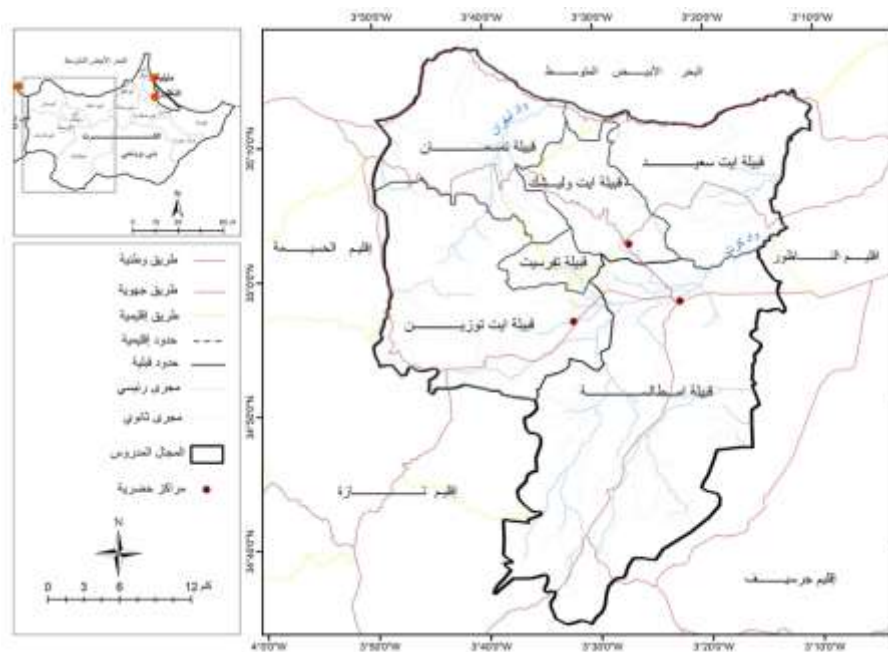
² - أوجيست، مرجع سابق، ص130.

³ - أنخيلو، كيريلي (1923): قبيلة بني توزين: دراسة منوغرافية، ترجمة: نبوضيلب الحسين، ط1، الرباط: مطبعة الكرامة، ص 70.

الجيم لقرب مخرجه من حرف الزاي، ويدعى هذا البطن من زناتة "ببني توجين"، وهم إخوة بني عبد الواد، ينتسبون إلى بني بادن بن محمد وهم من قبائل بني واسن التي كانت تسكن ضفافا ملوية¹. تتكون هذه القبيلة التي تبلغ مساحتها زهاء 624.17 كلم² من خمس فرق وهي: فرقة إغربين، ايت عكي، ايت تسافت، ايت تعبان، وايت بلعيز. وحسب التقسيم الإداري الأخير (2015) تتكون من خمس جماعات ترابية: إجرماوس، تسافت، إفرني، ميسار، أزلاف.

تقع معظم أراضي القبيلة بمرتفعات جبلية بينما تتحصر الأراضي الزراعية بمجالات ضيقة على ضفاف الأودية الغرينية، أما مناخها فيتميز بالاعتدال إلى حد ما وهو مناخ جبلي سمح بانتشار بعض المزروعات والغطاء النباتي الطبيعي، كما أن القبيلة تخترقها العديد من الأودية على رأسها واد أمقران الذي تغذيه مجموعة من الروافد القادمة من السفوح والتلال المجاورة (واد أغبال، بومسعود، تعمرت...) بالإضافة إلى انتشار عدد مهم من العيون المائية كعين أزلاف، أغبال، تَغْنَمَت، وعين السلطان، والتي ساعدت على انتشار مجموعة من البساتين والمشارت الزراعية ووفرت الماء الشروب لبعض الدواوير المجاورة. اعتمد سكان القبيلة في نمط عيشهم على الزراعة وتربية الماشية بالأساس، حيث تعاطوا لزراعة الحبوب وغراسه الأشجار المثمرة خاصة الزيتون والرمان واللوز وبعض الفواكه كالإجاص والمشمش، وفي نفس الوقت كانوا يخصصون حيزا من وقتهم لتربية الماشية خاصة صنف الأغنام والماعز نظرا لتوفر الظروف الملائمة (ماء، عشب، غابة...).

خريطة رقم 1. توزيع القبائل بالجزء الغربي للريف الشرقي



المصدر: خريطة قبائل الريف، إنجاز القلوشي محمد.

¹ - البوعياشي، أحمد عبد السلام (1974): مرجع سابق، 108.

- قبيلة ايت وليشك:

تتوسط قبائل الجزء الغربي من الريف الشرقي تقع ما بين خطي طول $3^{\circ}20'$ و $3^{\circ}40'$ غربا وخطي عرض 35° و $35^{\circ}10'$ شمالا، وهي قبيلة جبلية شبه ساحلية تحدها شمالا وشرقا قبيلة ايت سعيد وغربا تشرف على حوض بودينار - تسمان (قبيلة تسمان) وفي الجنوب الغربي تُحد على تفرسيت أما جنوبا فلها الحدود مع قبيلة امطالسة وتبلغ مساحتها الإجمالية ما يقارب من 210.63 كلم². وبخصوص نمط العيش لدى الولشيكيون فقد انحصر بين الغرسة وتربية الماشية بحكم طبيعة السطح الذي يسمح بذلك، فتعاطوا لغيرسة الزيتون وممارسة الرعي على نطاق واسع خاصة الأغنام والماعز. ويحدثنا موليراس عن هذا بقوله: "وتعطي أشجار الزيتون الكثيرة التي تقاوم الزحف المستمر لأشجار الصبار، زيتونا رائعا يتم تحويله إلى زيت بعصره تحت رحى ضخمة بدائية إلى حد ما. ويشكل الزبيب الناتج عن الكروم العديدة التي تتسلق قمم أعلى الأشجار، أحد الموارد الرئيسية للأهالي، إلى جانب العسل، كما تسمح تربية الماعز والأبقار لمالكي القطعان الكبيرة، بوفرة العيش"¹. بمعنى أن القبيلة كانت ولا تزال إلى يومنا هذا توفر مؤهلات وموارد ترابية هامة والتي تشكل عوامل مساعدة إلى حد كبير على خلق التنمية رغم صعوبة الوسط على المستوى الطبوغرافي. إلى جانب هذا اعتمد أيضا أهالي المنطقة على تجارة الأسواق والصيد البحري التقليدي، كما تميزوا بأعراف وتقاليد وذاكرة جماعية غنية.

- قبيلة تفرسيت:

هي إحدى القبائل الزناتية الأمازيغية الأقدم استقرارا في جبال الريف الشرقي، وأصل التسمية حسب الرواية الشفوية مشتقة من فعل إفَرَسَ (أي قطع واقتلع) بمعنى قطع الغابة وهو أول نشاط اشتهر به سكان المنطقة حيث كانوا يقومون بقطع الأشجار من أجل ربح أراضٍ إضافية والقيام بالزراعة واستغلال الحطب. وفي رواية أخرى سميت بهذا الاسم نسبة إلى. عين إفَراسن بدوار بوعظية، هذا ما أكدّه البوعياشي بقوله: "تخرج فيها عين معين من الماء الصافي، تسقى منها جنانها وبساتينها وتعتبر جنة بطيوة"². بينما تذهب الرواية الثالثة إلى تسميتها نسبة إلى الواد المعروف الذي يخترق المنطقة "واد فرسو أو فرسيت" وغيرها من الروايات الشفوية. تحتل أراضيها كتلة جبال تفرسيت - بني توزين تتوسط القبائل المذكورة وتعتبر أصغرهما بالمجال تقع في منطقة جبلية متضرسة جدا، على مساحة تناهز 73.67 كلم²، تحدها شرقا قبيلة امطالسة عبر قرية بوفرقوش، كما تشرف بالقسم الشمالي على حوض تسمان (قبيلة تسمان) وجبال بني سعيد (ايت وليشك) أما غربا فهي امتداد لكتلة بني توزين. تتوزع على فرقتين؛ فرقة بني محمد وبني خالد وتضم عشرة دواوير (إرزوقا،

¹ - أوجيست، مرجع سابق، ص 136.

² - البوعياشي، مرجع سابق، ص 201.

بوحفورة، إمجاراً، ايت يوسف...). ورغم وقوع معظم أراضي تفرسيت في منطقة وعرة التي كان لها الأثر البالغ على الاستغلال الزراعي، إلا أن سكان البلاد تعاطوا للزراعة والغراسة خاصة الأشجار المثمرة كالزيتون والمشمش واللوز ووظفوا التقنيات والدرايات المحلية والإمكانات المتوفرة؛ مما مكنهم من استغلال قيعان الأودية والبقع المجهرية المتناثرة في السفوح على شكل مدرجات، مع انتشار بعض الحقول المسقية التي تحظى بعناية فائقة خاصة تلك التي توجد بالقرب من مصادر الماء.

- قبيلة ايت سعيد:

تُشرف القبيلة مباشرة على البحر الأبيض المتوسط من الناحية الشمالية وتمتد إلى حدود بلاد امطالسة جنوباً وبني بوغافر وبني سيدال شرقاً كما تحدها أراضي بلاد تمسمان وايت وليشك غرباً، وهي منطقة جبلية تستحوذ على مساحة تقدر ب 427.23 كلم²، تنقسم إلى عدة فرق وهي: أئتشوك، بني تمايت، أمجاو، إزغوماً، أولاد عبد الدائم. وايت سعيد كما أوردها موليراس عبارة عن "أراضي رملية وأيضاً صخرية ومحدبة ولا يوجد السكان على الساحل، وتنقسم القبيلة إلى شطرين يعجان بالقرى بفعل اختراق جبل بني سعيد لها، الأول عبارة عن تلال متتابعة تمتد على خط مستقيم من الغرب إلى الشرق، أما السهل فهو جاف تماماً، إذ لا توجد به منابع ولا أنهار، باستثناء واد سيدي صالح بالغرب والذي لا يسقي للأسف سوى جزء ضئيل من المنطقة... وعلى امتداد هذه المساحة الشاسعة لا توجد أشجار، بل هناك فقط الحلقة وبحر متموج من حقول القمح والشعير الذي يمتد نحو الأفق خلال فصل الربيع"¹. وبالفعل لا زال فلاحوا المنطقة إلى اليوم يمارسون هذا النوع من الزراعة كونها لا تحتاج إلى مياه كثيرة، وتربة المنطقة أيضاً ملائمة لها، ومن الآثار الدالة على ذلك انتشار عدد مهم من مخازن الحبوب التقليدية (مطامير تحت الأرض). اشتهر أيضاً السكان بتعاطيهم للتجارة خاصة تجارة المواشي كما أكدت لنا أكثر من رواية شفوية بالمنطقة خلال فترة البحث.

- قبيلة تمسمان:

تعتبر من أهم القبائل بالريف الشرقي، فهي تحد شمالاً من البحر الأبيض المتوسط، وغرباً بقبيلة بني ورياغل التابعة للريف الأوسط وتُشرف مباشرة على حوض النكور، أما من الناحية الشرقية فهي تجاور قبيلة ايت وليشك وايت سعيد، وجنوباً كلا من قبيلتي تفرسيت وآيت توزين، وبذلك فهي توجد بأقصى الشمال الغربي للريف الشرقي. تمتد على مساحة تقدر بحوالي 406.98 كلم² تتموقع ضمن حوض كبير (بودينار - تمسمان) الذي تخترقه العديد من الشعاب والأودية الرئيسية كواد أمقران وسيدي إدريس وواد بني مرغنين إلى جانب انتشار مجموعة من العيون التي تتبع من أعالي الجبال. "وتستحق تمسمان هذا الاسم، فأينما حفرنا الأرض ينبع الماء، وفي جنوب القبيلة يكون الماء عذبا،

¹ - أوجيست، مرجع سابق، ص 138.

صافيا صالحا للشرب، أما في الشمال فهو عكر ومالح بعض الشيء¹. ويضيف صاحب كتاب المغرب المجهول أن أراضي القبيلة "كانت عبارة عن حقول خصبة مترامية الأطراف، تنتج الشعير والعدس والبقول والحمص والفاصولياء والذرة الصفراء والبطاطس التي تُستورد بذورها من الجزائر أو من إسبانيا، وبفضل السهل الشاسع تبرز بين الفينة والأخرى، أشجار وافر الظلال تكسر رتابة المنظر وتذكرنا هذه الأرض الخصبة والمزروعة بعناية من طرف ساكنة مجدة ومسالمة، بتلك المناطق الفرنسية التي يزرع فيها كل شيء، ولا يترك أي شبر من الأرض دون زراعة"². هذا ما أكدته أيضا ليون الإفريقي عندما تحدث عن القبيلة "إنها تنبت الكثير من الشعير، والماشية وفيرة بسبب مراعي الأودية، ولا تشكو من قلة الماء بسبب كثرة العيون"³.

يتميز النشاط الاقتصادي بالقبيلة بأهمية الفلاحة (الزراعة والغراسة بالأساس) التي تحظى باهتمام غالبية الأسر، فيما يتعاطى نسبة من الساكنة لنشاط التجارة سواء من خلال الأسواق المحلية (سوق خميس تمسمان) أو من خلال المراسي التي ربطتها بالخارج كما أشارت إلى ذلك العديد من الوثائق التاريخية، لا يتسع المجال للخوض في تفاصيلها لأنه ليس موضوعنا الأساسي، إضافة إلى ذلك توجد نسبة أخرى من الساكنة تمتحن تربية المواشي كما اشتهر التمسمازيون أيضا بإتقانهم لبعض الصناعات اليدوية التقليدية كصناعة الفخار والخزم والدوم والأواني والأدوات الفلاحية البسيطة. كما تتميز الحياة الثقافية التمسمانية بالثراء والتنوع الكبيرين سواء على مستوى اللباس أو الطعام أو الأعراف والتقاليد، سنعود بالتفصيل إلى هذا الموضوع في مقال خاص بالتراث المادي واللامادي.

مكونات التنظيم القبلي بالجزء الغربي من الريف الشرقي:

تعتبر القبيلة شكلا ونسقاً اجتماعياً ووحدة سياسية تدافع عن المشترك، وإطاراً أوجدته الظروف التاريخية والسياسية والسوسيو- اقتصادية، تتكون في مستوى أول من الأخماس مرورا بالأفخاذ، وفي مستوى ثالث الفرق والدواوير أو المداشر وفي درجة أخيرة تأتي الأسرة باعتبارها أصغر خلية اجتماعية ضمن القبيلة. بمعنى، على حد تعبير بول باسكون، أنها تتكون من وحدات بشرية متداخلة ومتجانسة ومتماسكة⁴. نفس الأطروحة يؤكدتها جرمان عياش بقوله: "إن القبيلة البدائية تظل هنا، أكثر مما هو عليه الأمر في مناطق أخرى، الإطار المتين لكل المجالات الحياتية وهذه القبيلة مقسمة إلى أفخاذ

¹ - أوجيست، مرجع سابق، ص 111.

² - المرجع لـسابق، ص 111.

³ - الوزان الفاسي، الحسن بن محمد (1983): وصف إفريقيا، ترجمة: حجي، محمد؛ الأخضر، محمد، الجزء الأول، ط2: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ص 344.

⁴ - Paul, P. (1980): Les rapports entre l'état et la paysannerie, Etudes rurales. S.M.E.R.

Rabat, p.13

ومتفرعة إلى مجموعة أسر، يجمع بينها الشعور بالانتماء إلى رابطة القرابة، مما يجعلها تشكل كيانا متميزا¹. وكانت كل وحدة من هذه الوحدات تسير شؤونها الخاصة وتنظم جميع العلاقات في إطار الجماعة (اجتماع) والتعاون بين أفرادها داخل مجال نفوذها وامتدادها. وفي الآتي نورد مكونات القبيلة بالمجال الذي نحن بصدد:

- الخمس: هو المفهوم الذي يعبر عن التحالف الذي يتم بين سكان مجموعة من الدواوير أو الأفخاذ أو القبائل². فمثلا نجد قبيلة امطالسة تتكون من أربعة فرق وهي: فرقة أولاد إبراهيم بن علي، أولاد حمو، أولاد سالم وفرقة أولاد داود، بينما تسمان تتكون من ستة فرق فتشمل كل من بني بيدر، وقاني، الفوقاني وبني مرغنين ثم بني تعبان وتروكوت، نفس الأمر لباقي القبائل (جدول رقم 1).

- الفخذ: أو الفخذه ويطلق عليها كذلك الأقسام أو الفصائل. وهي مجموعة بشرية تعيش فوق رقعة ترابية محددة، لكنها تابعة لقبيلة معينة. "وقد برزت تلقائيا كإطار تجتمع فيه عدد من الأسر للدفاع بشكل أساسي عن مصالح أفرادها، كما أنها تحتضن مجلسا يدعى بالميعاد يسير الأمور الداخلية ويسعى إلى تجنب الحرب بين مكونات الفخذ الواحدة أو بين الأفخاذ في إطار حرب اللفوف"³. وللخذه حدودها الترابية التي يتوجب احترامها من لدن الفخذات الأخرى، لأنه في حالة التهديد، فإن الفخذه تشكل وحدة عسكرية تدافع عن مجالها ورموزها⁴.

- الدوار والفرقة: يؤكد نورالدين المودان على وجود فرق طفيف بين الدوار والفرقة "فإن كان الظاهر يدل على عدم وجود الاختلاف بين الفلقة/الفرقة والدوار، فإن الذاكرة الجماعية ومن خلال ما هو متداول شفويا تؤكد على وجود اختلاف بينهما، فالفلقة عندهم تتكون من أفراد ينحدرون من نفس الجد وتربطهم علاقة دموية ولا ينفثون على الأجانب... في حين يعتبر الدوار هو المكان الذي يسمح فيه بالتحاق عناصر من آفاق مختلفة"⁵. فالدوار⁶ يضم عدة أفراد تربطهم علاقة الدم أي علاقة القرابة

¹ جرمان، عياش (1986): أصول حرب الريف، ترجمة: البزاز، محمد الأمين؛ التسماني، خلوق عبد العزيز، ط1، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ص191-192.

² زروالي، علال (2001): التحولات الريفية والتمدن في الريف الشرقي، المغرب، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة: أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافيا، ص102.

³ المودان، نورالدين (2018): التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للشمال الشرقي خلال القرن 19، ط1، وجدة: مطبعة حراء، ص70.

⁴ العطري، عبد الرحيم (2013): الرحامنة: القبيلة بين المخزن والزواوية، ط4: الرباط: دفاتر العلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث ودراسات رقم 1، المطبعة طوب بريس، ص95.

⁵ - المودان، مرجع سابق، ص 71-72

⁶ يسمى الدوار بالنسبة للتجمعات السهلية كدوار لهبارة وأولاد بورحيال ويطلق اسم دشر على التجمعات الجبلية كدشر ماورو وإشباباً وقضيا.

والأبوية وهو جزء من التنظيم المجالي والاجتماعي، وهذا التنظيم هو ذو مستويات وأبعاد مختلفة، كما أنه ليس وحدة جامدة بل وحدة تتسم بالدينامية¹. والدوار كوحدة سوسيوإقليمية يجمع الساكنة التي لها نفس الأصول العائلية والانتماء لنفس النسب (الجد الأكبر) أو على الأقل تربط فيما بينهم علاقة المصاهرة، ونادرا ما نجد عائلات لا تنتمي لنفس الشجرة، لذا كثيرا ما نصادف دواوير تحمل اسم الجد الأكبر على سبيل المثال دوار أولاد بورحيل، أولاد بوبكر، ايث عبد الله، أولاد سالم، أولاد عيسى وغيرها، وأحيانا قد يستمد اسمه من موضع معين أو عين مائية كدوار عين مسعودة، ثلويين "المنابع"، إعرقاب (تلال صغيرة) أو يأخذ اسمه انطلاقا من ضريح معروف كدوار القندوسي وسيدي احساين، سيدي عبد الله... إلخ. وكل دوار كانت تسيره الجماعة "إجماع" وتنظم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية داخله، وهي بذلك مؤسسة تتشكل من أعضاء ينتمون لنفس الدوار، وينتخب على رأس كل جماعة رئيسا في الغالب يكون شخصا بالغا في السن ومؤهلا ذا وقار وطيب الخلق يقوم بمهام محددة.

جدول رقم 1: أهم فرق قبائل الجزء الغربي للريف الشرقي

اسم القبيلة	فرق (فرقة)	عدد الجماعات حاليا	امتداد القبيلة	مساحة القبيلة ب كلم ² / هكتار
قبيلة تمسمان	بني بيدر	- بني مرغنين - بودينار - أولاد أمغار - تروكوت - تمسمان	أقصى الشمال الغربي	406.98 كلم ² 40698.33 هكتار
	وقاني			
	الفوقاني			
	بني مرغنين			
	بني تعبان			
	تروكوت			
قبيلة تفرسيت	بني محمد	- تفرسيت	الوسط	73.67 كلم ² 7367 هكتار
	بني خالد			
قبيلة ايت سعيد	أولاد عبد الدائم	- أمجاو - دار الكبداني - ايت مايت - تزاغين	أقصى الشمال الشرقي	427.23 كلم ² 42723.29 هكتار
	بني تمايت			
	أمجاو			
	إزعوما			
	أتشوكت			
قبيلة بني توزين	إغربيا	- اجرمواس - إفرني	الغرب	624.17 كلم ² 62417.16 هكتار
	بني تعبان			

¹– Iraki, A. Tamim, M. (2012): La dimension territoriale du Développement rural au maroc, etude géographie, I.N.A.U, rabat net. P23

		- ميسار - أزلاف - تسافت	ايت تسافت	
			بني بلعيز	
			بني عكي	
210.63 كلم ² 21063.92 هكتار	الوسط	- أمهاجر - تليليت - وردانة - بنطيب	أزرو	قبيلة بني وليشك
			إمزيلا	
			بني يخلف	
			بني عبد السلام	
			بني جبار	
1119.43 كلم ² 111943.37 هكتار	الجنوب	- الدريوش - امطالسة - أولاد بوبكر - عين زورة	أولاد إبراهيم بن علي	قبيلة امطالسة
			أولاد حمو	
			أولاد سالم	
			أولاد داود	

المصدر: تحقيق ميداني من طرف الباحث 2021

- **الأسرة:** تعتبر الأسرة أصغر وحدة سوسيو- مجالية في الهرم التراتبي للقبيلة. تتكون من الناحية النظرية من الأب والأم والأبناء عزبا ومتزوجين والأحفاد، ويجتمعون عادة في نفس المكان ويخضعون لسلطة الأب، لقد كانت الظروف العامة للبوادي وخاصة ضعف أدوات الإنتاج تستدعي تعويض النقص الحاصل فيها عن طريقة القوة العضلية أي الأفراد، فكلما اتسعت العائلة وزاد عدد أفرادها إلا ويكون بإمكانها الزيادة في مواردها الاقتصادية وبالتالي إلى تحسين وضعها الاجتماعي¹. إن أهم ما يميز الأسرة بالريف الشرقي هو كونها تجمع عدة أجيال من سلالة جد واحد يقطن أفرادها في دار واحدة أو مجموعة مساكن متفرقة متقاربة مع بعضها البعض مشكلة بذلك تجمعاً صغيراً يضم فقط أبناء الأسرة الواحدة كأسرة برنوص، بلغاش، دحمان وكربوب وغيرها، تربطهم أكثر من علاقة اجتماعية وثقافية واقتصادية لتقوية آليات التماسك والاستمرار والحفاظ على التوازنات داخل المجال المستوطن. وقد تنقل الأسرة إلى ما يسمى بالعشيرة أو العرق خاصة عندما تكبر وتتوسع نتيجة زواج الأبناء والأحفاد، فيضطر كل واحد منهم الخروج من الدار المشتركة الموروثة عن الأب أو الجد بحثاً عن الاستقلال.

¹ - الموائد، مرجع سابق، ص72.

الخاتمة:

حاولنا في هذا المقال لملمة أطراف موضوع معقد وشائك، ألا وهو القبيلة، فكل قبيلة تحتاج لإفراد بحث مستقل لها يوافيها حقها ويبرز مساهمتها في تنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية للأهالي، واكتفينا ببعض الإشارات السريعة عن كل قبيلة والتي نرجو أن تكون جامعة ودالة. فمجالنا شكلته فسيفساء قبلية متنوعة تعيش على إيقاع صراع دائم مع بعضها البعض كالصراع بين امطالسة وبني توزين أو بين امطالسة وبني بويحيي شرقا من جهة أولى، وأحيانا مع المخزن ومع وسطها الجغرافي الوعر من أجل ضمان البقاء على غرار باقي قبائل الريف من جهة ثانية، كون أهل المنطقة لهم ارتباط وثيق بالأرض ومتأقلين مع مختلف الظروف كيفما كانت ومهما بلغت درجة صعوبتها، ومن خلال مواكبة هذه الظروف هي التي أفرزت شكل التوزيع السكاني ونمط الاستغلال وأشكال تدبير الموارد. لكن القبيلة هنا بقدر ما هي شكل من التنظيم الاجتماعي، يسهر على التنظيم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي لمجال ترابي قد يضيق أو يتسع، فهي بقدر ما واجهت العديد من الأزمات رغم اقتصادها الكفاف المبني على الزراعة وتربية الماشية، فهي لم ترق إلى مستوى سوسيو-اقتصادي يساير مختلف المستجدات والتغيرات العامة. على العموم توصلت الدراسة إلى مجموعة من النتائج، من أهمها:

- إن الجزء الغربي للريف الشرقي مجال جغرافي شكلته فسيفساء قبلية متنوعة أمازيغية الأصول .
- شكلت القبيلة عنصرا أساسيا في الهياكل السياسية والبنية الاجتماعية والاقتصادية بالمجتمع القروي في الجزء الغربي للريف الشرقي خصوصا في فترة الاستعمار حيث لعبت أدوارا ثلاثية للتصدي للمعمر وإيقاف زحفه وتوسعه.
- لا زالت القبيلة حاضرة بقوة في ذهنيات المجتمع الريفي وحتى في الممارسات اليومية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كشكل من أشكال التنظيم والتعبير عن قوة الروابط والعلاقات الاجتماعية.
- يغلب على الأنشطة الاقتصادية للمجتمع القبلي بالجزء الغربي للريف الشرقي الطابع الفلاحي التقليدي.
- تميزت العلاقات بين القبائل أحيانا بالتوتر والصراع وأحيانا أخرى بالوحدة والتعاون خاصة فيما يتعلق بالدفاع عن المشترك.

وأخيرا، يأمل الباحث أن تكون هذه المساهمة المتواضعة مقدمة لبقية الأبحاث التي قد تأتي فيما بعد لدراسة هذه القبائل من زوايا مختلفة، سوسولوجية وتاريخية وأنثروبولوجية؛ لتعميق البحث حول القبيلة تاريخيا وسياسيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا.

قائمة المصادر والمراجع:

- أنخيلو، كيريلي (1923): قبيلة بني توزين: دراسة منوغرافية، ترجمة: وضيلب الحسين، ط1، الرباط: مطبعة الكرامة.
- أوجيست، مولييراس (1895): المغرب المجهول اكتشاف الريف، ترجمة: الخطابي عز الدين، الجزء الأول، ط1: دار النجاح الجديدة.
- البوعياشي، أحمد عبد السلام (1974): حرب الريف التحريرية ومراحل النضال، الجزء الأول.
- جرمان، عياش (1986): أصول حرب الريف، ترجمة: البزاز، محمد الأمين؛ التسماني، خلو عبد العزيز، ط1، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- حالي، محمد (2013): الديمغرافيا التاريخية للمغرب الوسيط من خلال تاريخ ابن خلدون، مجلة المستقبل العربي.
- الوزان الفاسي، الحسن بن محمد (1983): وصف إفريقيا، ترجمة: حجي، محمد؛ الأخضر، محمد، الجزء الأول، ط2: منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر.
- زروالي، علال (2001): التحولات الريفية والتمدن في الريف الشرقي، المغرب: كلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة: أطروحة لنيل دكتوراه الدولة في الجغرافيا.
- العطري، عبد الرحيم (2013): الرحامنة: القبيلة بين المخزن والزاوية، ط4: الرباط: دفا تر العلوم الإنسانية، سلسلة أبحاث ودراسات رقم 1، المطبعة طوب بريس.
- الفكيكي، حسن (2008): الشريف محمد أمزيان شهيد الوعي الوطني (1908-1912)، ط1، المغرب.
- القلوشي، محمد (2024): الموارد الترابية ودورها في التنمية المحلية بالجزء الغربي للريف الشرقي: دراسة حالة إقليم الدريوش، المغرب، جامعة محمد الأول وجدة: أطروحة الدكتوراه غير منشورة.
- القلوشي، محمد؛ بلغيثري، الحسن (2022): التغيرات المناخية وانعكاساتها على الموارد المائية: دراسة حالة قبيلة امطالسة (الريف الشرقي)، مجلة الدراسات الإفريقية وحوض النيل، مجلد 5، عدد 17، 340-352.
- القلوشي، محمد؛ بوغلبة، إسماعيل (2024): التراث المادي واللامادي بقبيلة امطالسة (الريف الشرقي): التحديات وسبل التثمين، مجلة أطلنتس، عدد 31، صص 627-638.

- القلوشي، محمد؛ بوڭلبة، إسماعيل (2024): الهجرة الدولية: ظاهرة اجتماعية وجغرافية لها انعكاسات وسوسيواقتصادية متعددة: دراسة ميدانية للجزء الغربي للريف الشرقي (شمال شرق المغرب)، مجلة العلوم الاجتماعية، مجلد 8، عدد 33، صص 180-207.
- المبارك، محمد (1992): بعض المعطيات حول الدولة والمجتمع خلال المغرب القديم، ط1، دار إفريقيا للشرق.
- المoadن، نورالدين (2018): التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للشمال الشرقي خلال القرن 19، ط1، وجدة: مطبعة حراء.
- Aderghal, Mohammed; Simenel, Romain (2012): La construction de l'autochtonie au Maroc, Des tribus indigènes aux paysans amazighs. Espace, Populations, Sociétés.
- Adra, N. (2021). Decolonizing tribal “genealogies” in the Middle East and North Africa. *International Journal of Middle East Studies*, 53, 492–496. <https://doi.org/10.1017/S0020743821000805>
- Alon, Y. (2021). Tribalism in the Middle East: A useful prism for understanding the region. *International Journal of Middle East Studies*, 53, 477–481. <https://doi.org/10.1017/S0020743821000787>
- Dukhan, H. (2021). The politics of tribalization in Syria. *International Journal of Middle East Studies*, 53(3). <https://doi.org/10.1017/S0020743821000817>
- Gao, Eleanor (2024): Bringing back the tribe: Why we should not abandon the study of tribes in the Arab world. *Frontiers in Political Science*.
- Iraki, A. Tamim, M. (2012): La dimension territoriale du Développement rural au maroc, etude géographie, I.N.A.U, rabat net.
- Paul, Pascon (1980): Les rapports entre l'état et la paysannerie, Etudes rurales. S.M.E.R. Rabat.